الشاهد الحسي في حوار القرآن لأهل الكتاب

د/ جلول بلحاج

جامعة أبي بكر بلقايد: تلمسان- الجزائر

الملخص

الأديان تكليف إلهي ومن مهام الرسل الكرام قبل إلزام الناس بمضامينها أن يقدموا بين أيديهم حجج صدقهم، فمن حق المدعويين أن يقتنعوا بالدعوة ولا أقل أن تقام عليهم الحجة، وخصوصا أمام ما كان يتم وباستمرار من إدعاء النبوة " الأنبياء الكذبة " وموجة " تحريف الأديان "؛ ولأجل هذا الخط القرآني الواضح نوع القرآن الكريم من الحجج على المدعويين بين شواهد حسية وأخرى عقلية وثالثة دينية...والبحث – عبرة النماذج المختارة – يتناول جانبا فارقا في حجة القرآن على مخالفيه وهو يحاورهم، ويسعى إلى المحافظة على الحقيقة بين صراع الخصوم.

تقدم جملة الآيات – محلُّ الاحتجاج – الشواهد الحاسمة الملخصة لسلسلة البراهين المقدمة في نقاش وعرض قضايا الأديان على أهل الأديان، تكتفي في أدنى حدودها بإلزام المخالف وقطع تشغيبه على الفكرة الصحيحة، وحصاره في زاوية الدفاع بدل أن تتاح له فرصة الهجوم المستمر على الحقائق بالتكذيب والتحريف...

الكلمات المفتاحية: القرآن، الحوار، الشاهد، الحس، الإلزام.

Summary:

Religions are a divine assignment and one of the tasks of the honorable messengers before committing people to their contents is to present in their hands the arguments of their sincerity. For the sake of this clear Qur’anic script the kind of the Holy Qur’an from the arguments of the invitees between sensory evidence and other mental and third religious ... and the research - through the chosen forms - deals with a difference in the argument of the Qur’an over his opponents while he talks with them, and seeks to preserve the truth between the conflict of opponents.

The verses - the subject of the protest - provide the crucial evidence summarized in the series of proofs presented in a discussion and presenting the issues of religions to the people of religions. At its lowest levels, it is sufficient to compel the violator and cut his affront to the correct idea, and to besiege him in the defense angle instead of having the opportunity to continuously attack the facts by denying and distorting.

- **أهمية الموضوع:** الحوار أحد موضوعات الأديان، زيادة على كونه من موضوعات القرآن في باب الدعوة والجدال بالتي هي أحسن، ومن جهة أخرى يتعلق أساسا بقضايا الخلاف في الأديان وفي مسائلها الفارقة والتي شقت التاريخ بالنزاع والخصومة الدامية في كثير من الأحيان. إن أمر القرآن بعرض الإسلام على بقية الناس بما فيهم أهل الأديان يقتضي مقدمات منها الحوار ويتضمن منهاجا واضحا بخصوصه. فليس الغرض دائما هو الوصول إلى إقناع الخصم بل يكفي إلزامه الحجة من أقرب طريق بعد فتح موضوعات للنقاش والبيان. وهكذا يتم تخفيف الضغط على الأقل على صاحب الدعوة الجديدة خصوصا في مراحلها الأولى، وبهذه الصرامة في تقديم القضايا الدينية تقوم الحاجة المتجددة إلى وضع أسس للحوار الديني، ينقل الاهتمام من المغالبة المفتعلة إلى المشاركة الفاعلة في عرض وبحث قضايا الأديان بأساليب أكثر تقنية، وأبعد عن النقاشات البيزنطية.

- **إشكالية الموضوع:** ومهمة البحث هي الوقوف على كيفية معالجة القرآن لقضايا الخلاف مع الأديان الحية، وما هي نتائج تلك المعالجة؟ وبماذا اكتفى المحاوِر القرآني عند تعذر الإقناع والتصديق؟

- **منهج البحث:** والمنهج التحليلي المقارن هو ما يراه الباحث كفيلا بإسناد عرض القضايا محل الاحتجاج، وترتيب النتائج على مقدماتها أسلم في محاولة لصيانة الحقائق الدينية، وقضايا الأديان من تراكم الزيادات البشرية، وآثار التخندق وراء الأحكام الجاهزة.

- **أهداف البحث:** وعلى هذا يصير من أهداف البحث هنا التأسيس لحوار ناجح فعال، ومستمر ومنفتح على بقية الأديان فضلا عن الأفكار البشرية، وبعيد عن التشنج الذي يقفز على ابجديات المنطق العلمي لصالح الإنتماءات التاريخية الضيقة، والتي تضرب الأديان ببعضها لصالح الإلحاد وجميع أشكال بدائل الأديان.

01- مقدمة:

بتتبع آيات القرآن الكريم التي كانت تخاطب من عاصر من أهل الكتاب زمنَ النبوة، نجدها قد تنوعت لتشمل أغلب جوانب النفس البشرية وبجميع أبعادها؛ ذلك أن

طائفة من هذه الآيات توجه نظرَ الخصم إلى ما يقدسه من كتاب ويتبعه من وحي، وكيف أن القضية المتنازع فيها – محلّ الخصومة – يحملها كتاب المخالف وتتكرر في جوانبه، بشكل يسمح باعتبارها قضية ثابتة لا تحتمل النفي، وتستعصي عن كل تأويل بدون دليل.

وفي آيات أخرى يوجه القرآن العقول المخاطبَة إلى منطق البرهان والفكر السديد حين يعرض مواقف يدل التعليل فيها على كونها مسلمة عقلية، بل من المبادئ الأولية التي لا يسع الخصمَ المنصف مخالفتُها، وإلا عد متعسفا.

وفي أحايين أخرى يتنزل القرآنُ إلى أدلة أكثر واقعية، لها طابعها المادي البحْتُ يراه المنازع أمامه أو يحسُّ به في نفسه، ومن النوع الأخير نقدم نماذج نستفتح بها حلقة احتجاج القرآن على أهل الكتاب. نمزج بين استعراض الدليل العلمي والصيغ البلاغية التي بدت فيها العبارة القرآنية، ويكون أكثر ما نعود إليه كلام المفسرين قديما وحديثا.

– **تحديد مفهوم أهل الكتاب:** وقع تعبير القرآن بـ" أهل الكتاب" عن خصوص اليهود والنصارى، وقد تكرر هذا التعبير مرات عديدة في الكتاب الكريم بما يزيد عن ثلاث وثلاثين مرة، وبه يتم التفريق في الخطاب بين ثلاث فئات: فئة المسلمين، وفئة الكفار بالوحي والنبوة، وفئة أهل الكتاب...

كما وقع تصنيف الكفار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم منهم داخل خانة أهل الكتاب (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[المائدة: 78–81]، وهو تصنيف جديد قيّد الإطلاقَ الواقع في الفئة المنسوبة للكفر بعموم النبوات وخصوص رسالة محمد عليه السلام. كما في قوله (قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)[الكافرون:1، 2]. وهي سورة مكية لم تقع الحاجة الماسة بعدُ لمباشرة خطاب أهل الكتاب؛ إذ لم تكن الهجرة إلى المدينة حيث الجالية

اليهودية بعدُ. وإن كان قد وقع الجمع بين التعبيرين في سورة البينة وهي مكية باتفاق (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً)[البينة: 1، 2].

وبتتبع المقصود بـ" أهل الكتاب " ومن خلال تفاصيل الخطاب الموجّه، يتبين أن اليهود والنصارى هما طرفا هذا التعبير، وأن بني إسرائيل أساسا هم الوعاء الحاوي للفئتين المذكورتين؛ ولأجل ذلك نحن بدورنا نقصر الحديث عليهما لا نتعدى ذلك فيما نقيمه من الشواهد، ونعتمده من التحليل.

02 – شهادة بعض الكتابيين على صدق الرسالة المحمدية:

01.02 – إيمان بعض أهل الكتاب بالقرآن: ففي سورة البقرة (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[البقرة: 121]. وقد ورد بخصوص تفسيرها قولان لأهل التفسير، القول الأول أنهم المؤمنون المهاجرون ومن تبعهم من الأنصار وغيرهم، وبالتالي فلا تعرض هنا لكتابي ولا غيره. وأما القول على ما حكاه الرازي " أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينِ آتَاهُمُ الْكِتَابَ، هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ مِنَ الْيَهُودِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَمَّا ذَمَّ طَرِيقَتَهُمْ وَحَكَى عَنْهُمْ سُوءَ أَفْعَالِهِمْ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِمَدْحِ مَنْ تَرَكَ طَرِيقَتَهُمْ، بَلْ تَأَمَّلَ التَّوْرَاةَ وَتَرَكَ تَحْرِيفَهَا، وَعَرَفَ مِنْهَا صِحَّةَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ."[1]. وما ساقه المفسرُ المذكور من الشواهد والإستئناس يرجّح ما اختاره، إضافة إلى كون بعض الكتابيين فعلا آمنوا بالكتاب وكانوا بمقتضى ذلك الإيمان العميق يتلونه حق تلاوته.

ونحن نختار هذا القول لنقيم منه شاهدا فيما نقصدُ إليه، ووجه الاحتجاج بالآية أمور نستعرضها بالتوضيح فيما يلي:

– أن المؤمنين المقصودين هنا هم من أهلُ الكتاب، وقد كانوا معروفين بأشخاصهم ومواقفهم، وهم يمثلون حالة علَنية لا يمكن الجدلُ حولها؛ وإلا لما كانَ في ذكرهم حجّة على غيرهم. ولا شك أنهم متدينون أو على الأقل نسبتُهم إلى الدين ظاهرة

---

1 – مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 03،1420هـ) ج 4/ 30.

بين قومهم من اليهود أو النصارى وغيرهم. وفي موضع آخر يتم تسجيل موقفهم هذا بصفة أخرى مقاربة ففي سورة الرعد وفي معرض الثناء عليهم وعلى مواقفهم النبيلة، التي تنصر الحق حيثما وجد، وعلى لسان مَنْ ذكر دون طاعة لعصبية أو حسد من النفس الأمارة (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)[الرعد:36]. ولا شكّ – وهو محل الشاهد هنا – أن فرحهم المشار إليه كان أمرا ظاهرا ومثيرا، ويمثل حالة نوعية في التصديق فهو ليس موقفا خفيا ولا مما فيه مجال للتردد، مع وضوح نسبتهم إلى أهل الكتاب بل العلم بالكتاب (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ). ولولا أنهم وجدوا ضالتهم في الكتاب الخاتم لما فرحوا فضلا أن يهتموا بالموقف مما يسمعون.

وفكرة (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) أنهم يحتكمون إلى ما فيه من علم دلهم على التصديق والفرح، ولو عادوا إلى عاداتهم في التأويل والحسابات الضيقة، لما استبانت لهم الحقيقة ولما تمّ لهم كثير من التصديق (وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) [الرعد: 36]" أي من الجماعات المتحزبة التي تفهم أن التدين تحزب وتعصب منهم من ينكر بعضه."[1].

– أن فئة من أهل الكتاب تؤمن بالقرآن، ولذلك فهي تتلوه حق التلاوة، فهذه حقيقة واضحة، وبإمكان من يوجه إليهم الخطاب – والمفترض أنه يستنكرها – أن يطلع علي تلك الفئة ويستفسر عن أشخاص وظروف من انحاز من أهل الكتاب يهودا كانوا أو نصارى إلى التصديق بالقرآن.

– أن تصديقهم للقرآن إنما هو انطلاقا من علمهم بالكتاب وانتمائهم إليه، فالكتاب هنا شاهد على صدق القرآن، فكونهم من أهل الكتاب هو المنطلق الذي يحدد في حقهم الإلتزام بالإيمان بكل شكل من أشكال النبوة الصحيحة، وإلا لما كان فيه خصوصية لنبوة دون نبوة، ولا كتاب دون آخر. (يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربنا)[آل عمران:]. ول ولا ذلك أيضا لما كان في نسبتهم إلى الكتاب فائدة تذكر. وهذا شبيه قوله تعالى (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى

1 – زهرة التفاسير، للشيخ محمد أبي زهرة (دار الفكر العربي، مصر، ط:01، 1995م) ج 8/ 3962.

صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[سبأ: 6]. قال ابن عطية " والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ قيل هم من أسلم من أهل الكتاب."[1]. وهو أحد قولي أهل العلم، والثاني أنهم أمة محمد عليه السلام، وظاهر (والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) يشمل الجميع كما هو واضح.

– ومنه أيضا لزوم أن يتضمن كتابهم ذكرَ ونعت وبيناتِ صدق الرسول الجديد والكتاب الخاتم؛ ذلك أن الانتقال من دين إلى دين، ومن اتباع نبي إلى اتباع ني آخر ليس دائما بالأمر الهين، ولا يبدو له مبرر عند كثير من أتباع الأديان، ولذلك كان كلّ نبي يوصي أتباعَه باتباع منْ بعده من الأنبياء. كما في قول يعقوب (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)[البقرة: 133] وهو في عموم اتباع دين التوحيد، وفي قول عيسى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)[الصف:6]، وهو في خصوص اتباع محمد عليه السلام...فيكون اتباع النبي الجديد من مقررات وأصول اتباع النبي الذي قبله، وأنت ترى أنه مع وجود وصايا الأنبياء قد وقع التكذيب والمخالفة.

أضف إلى ذلك التنشئة المتطاولة لأتباع كلّ دين بل كل فكرة ولو كانت باطلة؛ فلزم إذن أن هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب إما أن يثبت لديهم أن نبيهم أوصى باتباع نبي بعينه أو يوجد لديهم من نعوت النبي الموصى به ما يكفي لاتباعه بعد التصديق بنبوته.

– أن إيمان من آمن هو حجة على من لم يؤمن؛ لوجود نفس المقتضي والداعي إلى التصديق: ورد ذكر من آمن بالرسالة الجديدة من أهل الكتاب عدة مرات في القرآن الكريم سواء في العهد المكي أو المدني؛ فيقدم القرآن ذكر هؤلاء في سياق الاحتجاج بهم على من لم يؤمن من قومهم. مع أن هؤلاء المؤمنين من خيارهم، وذلك باعترافهم أنفسهم، وقد تم إسلامهم فعلا؛ فلزم من ذلك أنهم قد عرفوا الحق فاتبعوه، من كل من لم يمنعهم مانع من زعامة دينية أو وظيفة دنيوية.

---

1 – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 01 ،1422هـ) ج 4/ 406.

وقد ثبتَ من جهة الآثار ومرويات التاريخ عند قوله تعالى (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) [الرعد: 36] أنزل إليك من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به وعند قوله تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)[البقرة: 21]، وهم جماعة ممن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران."[1].

فهذه جملة من الآيات يستشهد بها القرآن، فيها احتجاج على من كذب من الكتابيين في حين آمن من خيار قومهم كثير؛ مما يدل على أنهم قد عرفوا أمرَ الإسلام من قبل؛ فلما عاينوا أمر صاحب الرسالة وتأكدوا من صدقه لم يترددوا في إتباعه.

وهذا نفسه بجعل الحرج على من كان مثلهم في الديانة والعلم، ثم رغب عن الإسلام لسبب من الأسباب كالكفر والحسد والتحريف والحرص على الزعامة وحطام الدنيا، إذ قد دنست أعراض الدنيا قلوبهم ، فصدهم عن التصديق الواجب الكبرُ المطاع، والهوى المتبع.

ويزيد الأمر وضوحا جانب البلاغة في هذه الآية فالبحث في المفردات يكشف عن كلمة (فَأُولَئِكَ) وأنه إنما: " جيءَ باسم الإشارة في تعريفهم دون الضمير وغيره؛ للتنبيه على أن الأوصاف التي استحضروا بواسطتها حتى أشير إليهم باتصافهم بها."[2]. كما لو أنها تشير إلى محسوس فضلا عن كونه معلوما، وذلك في القرآن كثير.

وبالبحث في الجمل اسمية كانت أو فعلية يقرر أهل البلاغة أن " (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) اعتراض لبيان حال مؤمني أهل الكتاب بعد ذكر أحوال كفرتهم، ولم

1- تفسير المراغي، مصطفى المراغي (مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط: 02، 1953م) ج211/1.

2 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (الدار التونسية للنشر، تونس، ط:01، 1984 هـ) ج696/1-697.

يعطف تنبيها على كمال التباين بين الفريقين."[1]. وذلك أن ما قبلها (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) [البقرة: 120]، فالفريقان وإن كانا من أهل الكتاب إلا أن فيصل التفرقة بينهما كان الكفر من الطائفة الأولى والإيمان التام من الثانية، فناسب ترك العطف بالواو أو بغيره؛ المقتضي تمام والمفاصلة البراءة بين الفريقين.

وبالعودة إلى جملة (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) الفعلية، فإذا هي " حال مقدرة، أي: آتيناهم الكتاب مقدّرا تلاوتهم؛ لأنهم لم يكونوا تالين وقت الإيتاء. وهذه الحال مخصصة لأنه ليس كلّ من أوتيه يتلوه."[2]. فدل النظم الكريم أن فعل التلاوة أعقب مباشرة وباستمرار فعل التصديق حتى كان التلاوة الحقَّة حالهم الثابت وهو مقتضى الإيمان، ولا مانع أن تلاوتهم للكتاب حق التلاوة سبقت إيمانهم فنفعتهم في حصوله؛ فيكون الفعل المضارع (يَتْلُونَهُ) مفيدا لاستمرار التلاوة من منطلق البحث عن الحقيقة بغرض الإيمان بها، وهو ما حصل؛ وثبت بها الحال المستمر للتلاوة المنوّه بها.

والملاحظ تقديم المسند إليه (أُولَئِكَ)، على المسند (يُومِنُونَ بِهِ)، والأصل تأخر الأول؛ فلا يكون التقديم المذكور إلا لفائدة، وهي أن في" تقديم المسند إليه على المسند الفعلي الحصر والتعريض."[3]. فالإيمان محصور فيهم لا مجال لعطف غيرهم عليهم في النظم، والتعريض مستمر بمن لم يحصل منهم الإيمان اللازم مع قيام دواعيه، فيكون هذا من باب الذم لهم، والوعيد بالخسارة.

وسكتت الآية الشريفة عن ذكر ما وعد به من آمن من الفوز، ولكنها صرحت بما للكافر من الخسارة؛ إيجازا في العبارة وقد ظهر المعنى، وأما آية (فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) فهي " تصريح بحكم مفهوم أولئك يومنون به، وفيه اكتفاء عن التصريح

1 – التحرير والتنوير، نفس المرجع. ج 697/1.

2 – روح المعاني ، محمود شكري الألوسي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 01، 1415هـ) ج 372/1.

3 – روح المعاني، المرجع نفسه. ج 372/1 .

بحكم المنطوق وهو أن المؤمنين به هم الرابحون، ففي الآية إيجاز بديع على أن الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته هم المؤمنون دون غيرهم؛ فهم كافرون فالمؤمنون به هم الفائزون والكافرون هم الخاسرون."[1].

01. 03 – شهادة بعض أهل الكتاب على صدق الرسول:

01. 04 – تأكيد معرفة أهل الكتاب للرسول: من حق المدعو أن يتأكد من صدق الداعي بل أن يجزم بذلك، إذ كان الإيمان به أمرا لا يقبل التردد؛ ولأجل ذلك نزلت الكتب ووقع تأييد الأنبياء بالمعجزات، وتضمنت النصوص أدلة وبراهين تقطع الشك باليقين في ذلك. وإذا كان هذا من حق الأمي الذي لم يسبق له كتاب ولا علم له به، فيكون ذلك أولى عند من يتبع كتابا، ويهتدي بنبي أو على الأقل يدعي الإنتماء إلى ذلك.

من هذه الحيثية نسجل الخصوصية في منطق الاستدلال بمناسبة حوار أهل الكتاب، حيث يكون الميل أكثر إلى الإيجاز وما هو واضح ومحسوس أيضا؛ فالآيتان التاليتان تندرجان تحت هذا الخصوص، المشبع بالتأكيد (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[البقرة: 146]، (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام: 20]. وواضح أن المقصود خصوص من أوتي علم الكتاب لا عوم من ينتمي إليه من اهل الكتاب إذ كان فيهم الصغير والكبير والعالم والجاهل ومن لا أبناء له.

وهذا التخصيص تفيده بية كريمة في سورة النساء تسجيلا للموقف الصحيح الذي ينبغي أن يتخذ إزاء النبي الجديد وبعد الإلمام بمحتوى علم الكتاب (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ)[النساء: 162]. قال سيد قطب: " وقد ورد في التفسير المأثور، أن هذه الإشارة القرآنية تعني أولئك النفرَ من اليهود، الذين استجابوا للرسول ﷺ."، وقال أيضا عقب ذلك " فالذين

1 – التحرير والتنوير ، المرجع نفسه. ج 697/1.

يتعمقون في العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقي، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة.."[1].

أما ما هو في الآيتين المشار إليهما فإنهم يجدون أنفسهم أمام معرفة ملزمة، مرّة من جهة مضمونها، وأخرى من جهة درجة وثوق النفس المتزايد بها. ونحن نتعرض لوجوه الاحتجاج بهاتين الآيتين من زوايا مختلفة يكمل بعضها بعضا منها:

– تعميم الحكم بمعرفة الذين أوتوا الكتاب للنبي الجديد: يفيد التصدير بالاسم الموصول " الذي" تعميم فكرة أن جميع من أوتي الكتاب من أهل الكتاب قد ثبت لديهم صدق هذا النبي، وهو يقصد من طالع الكتاب أو استمع إلى من عنده علم بذلك ولو من الأميين وأنصاف المتعلمين. وذلك أن من أوتوا الكتاب كانوا ينتظرون بعثة نبي جريا على عادة بعثة الأنبياء إليهم تباعا، حتى صارت النبوة تدعى بينهم كذبا، وشاعت لأجل ذلك فكرة عدم الوثوق بالأنبياء الكذبة وذلك واضح في الكتابين التوراة خصوصا والإنجيل أيضا. وواضح أن انتظار النبي المخلص يكون زمن الأزمات واشتداد الحال على بني إسرائيل عموما، وقد كان هذا دائما مستمرا انطلاقا من مواقف الدول القائمة من اليهود إما باعتبارهم فئة مذمومة أو أقلية مغلوبة، أكان ذلك بأرض فلسطين أم بأرض بابل من العراق على ما هو معلوم تاريخيا.

وأسوق هنا نصا من التوراة يدل على مدى القهر الذي كان اليهود يعانونه من أهل الأرض البعيدة العراق وما جاورها فضلا عن الرومان: " في ذلك الزمان صعد عبيد نَبُوخَذْناصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار. وجاء نبوخذناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخرج يهوياكين ملك يهوذا الى ملك بابل هو وامه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه واخذه ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه، وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل انية الذهب التي عملها سليمان ملك اسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب. وسبى كلّ اورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة الباس عشرة الاف مسبي وجميع

1 – في ظلال القرآن، سيد قطب (في ظلال القرآن، سيد قطب (دار الشروق، سوريا، ط: 06، 1984م) ج 804/2.

الصناع والاقيان.لم يبق احد الا مساكين شعب الارض. وسبى يهوياكين إلى بابل وأمّ الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الارض سباهم من أورشليم الى بابل.". [2 مل 24:12]، وفي نص آخر " فقام جميع الشعب من الصغير الى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا الى مصر لانهم خافوا من الكلدانيين.".[2 مل 12:25]

بل إن العرب أنفسهم المجاورين والتابعين لدول الرومان من أرض فلسطين كانوا مصدر خطر على اليهود مما عمق هاجس الهجرة إلى الأمكان البعيدة بحثا عن الأمن، تماما كما أوغل العرب في الصحراء لنفس الأسباب، وهو هنا الخوف من سطوة الروم والفرس، وما كان بينهما من التطاحن، وما يتطاير من شرر ذلك التطاحن على العرب المتاخمة لحدود الدولتين (غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)[الروم: 1، 3].

وأشير هنا إلى الهجرات المتكررة لليهود إلى أرض مصر والخروج منها لنفس السبب، وهو ما يؤكده النص التالي، ويؤكد حال عدم الاستقرار الذي كانت تعانيه الأجيال المتلاحقة. ويظهر لي والله أعلم أن قوله تعالى (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِين) [المائدة: 26] يشير إلى هذا وأن تقيد المدة بأربعين سنة هي عمر الجيل الواحد الذي يحمل معاناة القهر والظلم، وسوء تسيير رؤساء اليهود فيعدم لديهم الاستقرار النهائي بأرض مّا حتى إذا كبر الجيل اللاحق كان متخففا من هذه الرواسب فيسهل عليه نوعا ما الإستقرار، وهو المتوقع والمسجل أيضا.

وظن الباحث أن تواجد فريق من اليهود بأرض العرب إنما كان من جهة قلة عددهم، وأن هذه الأرض كانت بلادا سائبة لا تطالها أحكام دولتي الروم والفرس، وأن تواجدهم بالجزيرة كان على فترات تلمسا للمكان الآمن، وقد كان ذلك بالمدينة وضواحيها دون مكة. وما تتيحه المدينة من نشاط الفلاحة وقلة تركيز سلطة العرب بها.

ولا ينافي هذا ما هو شائع من أن قدومهم لأرض العرب كان لأجل ما عرفوهم من كتبهم وعلمائهم من أن النبي الجديد إنما يكون بأرض أشبه بأرض العرب، معتقدين ولو خطأ جريا على المعتاد الكثير أنه من بني إسرائيل وإن شطت به الدار.

– **تأكيد درجة المعرفة بمعرفة الأولاد الخاصين:** وتفيد الآية الشريفة أن الفريق المعني تتأكد المعرفة عنده بالنبي الجديد، بالدرجة التي يتأكد بها الواحد منهم باتصال نسب وله به من جهة الواقع أو وراثة الصفات الحسية والمعنوية، وقد ورد في هذا من الآثار ما نثبته هنا ، ونعلق عليه من أن ذلك أمر ميسر واحد منهم ومؤكد وإلا م تتم حجة الآية عليهم. ولا شك أنهم متأكدون من أنساب أولادهم بهم لا يدعون غير ذلك. وواضح أيضا أن هذا من باب المحسوس حتى لا تكاد تخطئه العين، وتزيده مطالع أحوال النبي عليه السلام بيانا وتركيز باتجاه التصديق عموما بعد أن سمعوا به وهو لا يزال بمكة، وخصوصا وقد ساكنهم وجاورهم بالمدينة وأمكنة المعاينة وليس الخير كالمعاينة، وقديما قيل:

....ولهذا سأل المعاينة الخليل إحالة على قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[البقرة: 260].

– **وجود النعوت والأوصاف بما يكفي لتأكيد المشابهة:** وتعني المشابهة هنا (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) تمام انطباق الأخبار المتواترة والنعوت الواضحة على أحوال النبي الجديد، زيادة على المعرفة بالمكان وتوقع الزمان. إن توفّر الأخبار المفصلة لأحوال النبي المنتظر، والنعوت القائمة به لحظة بعثته وخصوصا عند المعاينة مما يمعن في قيامه بالشكل المحسوس الذي يمكن الوقوف عليه كلما تطلب الأمر ذلك، وإلا لم تتم حجة القرآن على العالمين بذلك، والعارفين بأمر البعثة.

– **أن الإنكار ليس أكثر من اضطراب نفسي لا علاقة له بدلائل صدق النبي الجديد:** وتفيد الآيتان أيضا أن الموقف لايخضع لمنطق التصديق أو التكذييب من جهة ثبوت الأخبار أو انتفائها، وكذا من جهة وضوح البيينات أو انطماسها بتطاول العهد وما تعرض له الكتاب الديني لدى اليهود؛ من كل ما يعانيه الباحث عن الحقيقة، الملتزم باعتمادها ساعة العثور عليها.

إن الأمر هنا يخضع للأحكام الجاهزة أكثر من غيرها، ولخبايا النفوس التي لا يطلع عليها غير أصحابها، وهم فقط من يحسّون وطأتها، والحسد المذكور في مواضع من القرآن كخلفية لتكذيب اليهود وعداوتهم يفسر المراد من ترك الحقيقة مع قيامها، وتجاوزها مع شدة ظهورها (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم). وذلك في قوله (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا)[النساء: 54].، وقوله (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[البقرة: 109]. وهو تفسير الاستكبار في قوله تعالى (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ)[الأحقاف:10]. والمعنى « أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي بشرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به."[1].

ولو كان هذا الاستكبار بسبب الحرص على مناصب الدنيا ومكاسبها كما هو عند المشركين لفهم معناه، ولكان متوقعا كما كان يقع للأنبياء والمصلحين في كل جيل، وكان الاستكبار المذكور مرده إلى موقف ديني غير متوقع بل ولا مقبول، فالدين لله واحد في مصدره وطريقه، ثم هو من جهة أخرى يغري بتكذيب الأنبياء من جهة خصومهم اللادينيين ما داموا ، قد كذبوا من جهو من المفروض فيهم أنهم أباع أنبياء وهو ما حدث لليهود مع قريش وقد سألوهم عن النبي الجديد (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا)[النساء:51]. " أَيْ يُفَضِّلُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِجَهْلِهِمْ، وَقِلَّةِ دِينِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي بأيديهم، وقد روى ابن أبي حاتم عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: جَاءَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ فَأَخْبِرُونَا عَنَّا، وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ وَمَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا نَحْنُ نَصِلُ الْأَرْحَامَ، وَنَنْحَرُ الْكَوْمَاءَ، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ، وَمُحَمَّدٌ

1 – تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (دار طيبة للنشر والتوزيع، العربية السعودية، ط: 02، 1999 م) ج 278/6.

صُنْبُورٌ قَطَّعَ أَرْحَامَنَا وَاتَّبَعَهُ سراق الحجيج من غِفَارٍ فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ فَقَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً) الآية."[1].

03– ظهور عداوة اليهود مشابهة للمشركين:

وفي سورة المائدة (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)[المائدة: 82–83].

قال الإمام ابن القيم الجوزية معلقا على الآية « قال ابن عباس لما حضر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي النجاشي وقرأوا القرآن سمع ذلك القسيسون والرهبان، فانحدرت دموعهم وجلا مما عرفوا من الحق؛ فسجل القرآن الكريم ذلك لهم بقوله (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) [المائدة: 82]. ووجه الاحتجاج هنا هو ما يلي:

– **نسبة العداوة بدون حق إلى اليهود:** تثبت الآية العداوة الصارخة لليهود للمؤمنين بالنبي الجديد بدون وجه حق، حتى كانوا في ذلك مضاهين للمشركين في خصومة المؤمنين. وإذا كان المشركون لا عهد لهم بكتاب تلزمهم بقيته بالبقاء عليه، وهم قوم النبي الجديد وما تفرضه تنشئة البيئة الضيقة من حساسية الإنتماء الواحد؛ فإنّ اليهود على العكس من ذلك كله، فإنهم أهل سبق في الكتاب، وبين أيديهم بينات النبي الصادق، ودلائل الوحي السماوي، وهم متخففون من حساسية الجنس الواحد.

إن الموقف الذي يقتضيه منطق الحكم على الأحياء والأشياء هو التحفظ في أمر بعثة نبي ما سواء تعلق الأمر بتصديقه أو بتكذيبه، حتى تتبين الأمور، ويتأكد الحال؛ ولكن ذلك لم يحدث إطلاقا من اليهود خصوصا من كانوا بالمدينة فكيف بمن كانوا أبعد منها وقد سمعوا بالرسالة في غير بني إسرائيل، وأين ذلك في العرب؛ بل الذي حدث هو إظهار العداوة البالغة التي لا تردد فيها ولا تحفظ.

1 – مختصر تفسير ابن كثير (دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط: 07، 1981م) ج 1/ 403.

وصيغة المضارع (لتجدنَّ) المؤكد بالنون المفيدة للإستقبال أيضا تفضح العداوة المستمرة التي بالإمكان الوقوف عليها، لخضوعها للحس والعيان، وأنها بالغة لا مجال لتغييرها على الأقل في الجيل الذي عاصر النبوة، خرجت عن حد الإدعاء إلى الواقع المسجل.

وإثبات هذه العداوة المحسوسة يحرجهم من جهات عدة، ويفسر لهم وللمؤمنين هذا الكَلَب الذي أصابهم ففي التكذيب بنبوة رسو جديد، لم يأخذوا وقتهم في تبين حقيقته؛ إذ عجلوا بإنكار أمره وهو لا يزال بمكة، ونحن نذكر ما كشفه القرآن للمؤمنين وغيرهم:

– **أن عداوة اليهود الشديدة لم تجعل لهم فضلا على المشركين:** إذ استتوا في التكذيب، وإنكار الحق. وإذا كنا نفهم عن المشركين ما يقدم لذلك من فراغ حالهم عن النبوة عنهم قرونا طويلة، كمافي قولله تعالى (الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)[السجدة: 1 – 3]. فإنه لا يفهم ولا يقبل منهم وقد نزل فيهم اقرون الطويلة ما يبين لهم بينات النبوة، ويحتم عليهم اتباع أصحاها.

– وإذا كان المشركون تشدهم مكاسب الدنيا الفانية يتوقعون زوالها، والحساسية الضيقة بين بعضهم وبني هاشم مثلا؛ فما الذي يمنع من له موروث الكتاب أن يتنزه عن ذلك وهو يعلم أن أعداء الأنبياء والكفار بالحق كانوا من أهل الدنيا، لا الدين، ومن الأميين لا أهل الكتاب. وإذا كان النبي لا ينصره من له معهم قسمة من عم الكتاب؛ فكيف يتوقع النصرة من غيرهم. ولكن اذي حدث وكان معلوما بالعيان العكس تماما.

– أن اليهود لم يكفهم أن يبقوا على الحياد ما داموا لم يؤمنوا، فلا تكون للمشركين فرصة في ولائهم، وتقويهم بهم على النبي الجديد، وخصوصا أنه كان لهم ما يبرر لهم ذلك من أنهم كانوا بأرض المدينة حيث يجاورون محمدا عليه السلام ويخافون رد فعل لا بأرض مكة حيث يأمنون منه. إن العداوة الشديدة الظاهرة غير

المبررة بالحق أنستهم هذا الظرف الخاص؛ وعجلت برحيلهم عن جزيرة العرب، وحلّ من كانوا مشركين فيما بعد محلّهم من العلم بالكتاب.

– **تفضيل النصارى على اليهود في الديانة:** وسجلت الآيات بصفة نهائية أن عداوة الأنبياء والحق تترتب بالشكل التالي: اليهود كما هم في كل زمان، والمشركون ما لم تتمكن من قلوبهم الهداية، والنصارى على قلة فيهم يهتدون إلى الحق ويرقُّون إلى داعيه، تماما على الذي في قوله تعالى (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) [المائدة: 82، 84]. ولا يزالل اللأمر قائما على نصت عليه هذه الآية، وصدق الله العظيم في كلامه وفيما صدق به عبده.

04– التحدي بطلب الموت دليلا على الصدق: وههنا شاهد حسي آخر أكثر تركيز، إذ كان التحديد جاريا بين الطرفين في موضوعين الأول هم اليهود المخاطبون بالطلب المذكور، وكون تمني الموت هو الطلب المقصود. ففي قوله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[البقرة: 94]. نطالع تضمن هذه الآية حجة جديدة بل محاجة زائدة على ما تقدم فبعد أن قدم دعواهم بجملة " مستأنفة مسوقة للدخول في فنّ آخر من أراجيفهم التي يحيكونها." [1]، أورد على سبيل الحكاية عنهم من أن الدار الآخرة وخصوص ما فيها من نعيم يكون حسب دعواهم خاصا خالصا لهم من دون سائر الناس، وقد كرر معنى الاختصاص في الآية بعدة صور منها :

– التصريح بكلمة (خالِصَةً).

1 – إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش (دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط: 04، 1415هـ) ج 1 /149.

– التعبير بـ(لَكُمُ)، فإن ذلك " مشعر بأن المراد من الدار الآخرة نعيمها"[1]؛ لما في معنى الاختصاص من فائدة عائدة.

– التعبير بـ(مِنْ دُونِ النَّاس) " وقوله (مِن دُونِ النّاسِ) توكيد لمعنى الاختصاص المستفاد من تقديم الخبر ومن قوله خالصة لدفع احتمال أن يكون المراد من الخلوص الصفاء من المشارك في درجاتهم مع كونه له حظ من النعيم.»[2]. وأفاد قوله (دُون): " للاختصاص وقطع الشركة "[3]. وفي تقديم لفظ (لكُمُ) نكتة وهي أنها " خبر (كانتْ) قدم للحصر بناء على اعتقادهم .»[4].

وجه الاحتجاج بالآية:

04 – الإثبات العلَني لدعواهم الاختصاص بالجنة: خصت الآية اليهود زمن نزول الوحي بدعوى الاختصاص بالدار الآخرة دون سائر الناس، وقد ظلت هذه الآية من سورة البقرة تتلى قريب من ثماني سنين قبل وفاته عليه السلام وانقطاع الوحي، ومن المؤكد أن اليهود المعاصرين قد سمعوا هذا الوحي، وتداولوه بينهم لأنه يتحدث عنهم دون سواهم، ويعيد على الإسماع ما يعتقدون بل يعلنون، فهو إذن قد أثبت عليهم ذلك بنسبته إليهم، ولم يرد ذكر فيه ولا في التاريخ أنهم تنصلوا منه أو نسبوا ذلك إلى جماعة منهم من السابقين أو اللاحقين، ولا تعقبوه بالتحفظ والبيان.

من هذا الوجه ثبت الإدعاء في حقهم بفعل القرآن العلني، وشدة الحرص على رد موضوعه السنين الطويلة وفي الوقائع المتعددة مع قيام داعي الإنكار والتكذيب وهو العداوة الشديدة، وفرص المواجهة المتكررة، وتكرر إدانة الوحي النازل لهم بما كسبت أيديهم في حق أديانهم ودين المسلمين.

– **اقتضاء الاختصاص المدعى القرب في الديانة:** وواضح أن هذا الإدعاء بالاختصاص بالدار الآخرة دون سائر الأمم قديما وحديثا – زمن صاحب الرسالة على

1 – التحرير والتنوير، المرجع السابق. ج 614/1.

2 – التحرير والتنوير، المرجع السابق. ج 615/1.

3 – روح المعاني، المرجع السابق. 227/1.

4 – التحرير والتنوير، المرجع السابق. ج614/1

الأقل – له ما يثبته من حيث المضمون، وليس ذلك إلا ادعاء القرب من الله بشدة الديانة، ورسوخ الإيمان. وهذا أمرٌ علني أو ينبغي أن يكون علنيا إذ كانت الأديان في الجملة تشتمل على نسب كافية من مظاهر التدين تثبت للناظر والعارف حقيقة التدينَ من عدمه، والثبات في الدين من ضعفه.

وقد ورد في سياق آخر ما يؤكد هذا الاختصاص بالجنة، والنجاة من العذاب في قوله تعالى (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 80 – 82]، وفي موضع آخر (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [آل عمران: 24، 25]. فالثابت من الآيتين أنه لا أحد معزل من أن يحاكم إللى أعماله، وما يه تصدي أحواله، وأن ميزان الحسنة والسيئة هو الفيصل بين الأمم، وأن غير ذلك غرور لا طائل تحته.

وأنت ترى أن باب الإدعاء واسع، وأطرافه مفتوحة على التعدد، ولكن الحقيقة هي دائما بميزان الوحي العدل أو الفضل، وبميزان منطق الاستحقاق لا شيء غير ما يكتسبه الأفراد والجماعات من درجة الإحسان أو الإساءة بمفهومها الديني الشامل للصلاح والإصلاح الدنيوي.

وفي موضع ثالث ما يفسر ويبرر ذلك الادعاء من الاختصاص بالجنة دون الناس ممن هم خير منهم في شأن الدين والدنيا، وفي أكثر من زمان ومكان. على أن ذلك التبرير مما يشتركون فيه مع غيرهم ممن طينتُة الإدعاء، والتوسع في الانتساب إلى الخصوصية (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)[المائدة: 18]). وقد باليهود وبالنصارى من العذاب المعجل دون الآجل منه ما هو معلوم، و ذلك ينفي

وبصورة نهائية وأمام الجميع فكرة أن يكونوا بمنأى من العذاب ما داموا قد استحقوا ذلك بسبب سابق الذنوب المتلاحقة، والعظائم المتراكمة.

– **التوجيه العلني لطلب تمني الموت دليلا على الاختصاص:** ولما كانت في خصومة النبي الجديد فرص لتكرار ادعاء الخصوصية دون عرب الجاهلية ومن انتسب منهم لاحقا إلى الإسلام أو عموم ديانة أخرى غير اليهودية أو اليهودية والإسلام معا، ومن المعلوم قطعا أن سماع ذلك من غيرهم قد يوقع السامعين في التشويش وافتراض صدق القضية، وأن أهل الديانتين غير معنيين باتباع النبي الجديد، وأن هؤلاء الدين الجديد فضلا عن اليهود والنصارى، فقد اختصر الوحي الطريق في البرهان على القضية، واستلال الدليل من نفس المدعي وبإقراره العلني المفتوح.

فالآية واضحة في طلب أمر يحسم النزاع في الموضوع، ويقطع الشغب حوله، وإن كان لا ينهي قضية التكذيب فلها أسباب أخرى. فخطاب (فتمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين). واضح ومباشر ووجيز العبارة، والمطلوب منه أمر محسوس، والجواب عنه ينبغي أن يكون كذلك واضحا ومباشرا ومحسوسا أيضا.

وقد كان العرض مستمرا وعلى مسمع من الجميع طوال عشر سنوات يختصر الجدال مع أهل الكتاب بالمدينة خصوصا اليهود منهم. ولكن عزّ الطلب، وازداد معه الحرص على الدنيا مما هو عكس المطلوب ونقيضه، وتأكدت حجة القرآن تفحم الطرف اللدود، وتثبت قلوب المؤمنين ممن استفزهم الإدعاء الفارغ، والتصريحات العريضة فارغة المضمون.

والشاهد هنا ما في التفسير: " فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَلْزَمَهُمُ الْحُجَّةَ فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ، يَعْنِي: الْجَنَّةَ، خالِصَةً، أَيْ: خَاصَّةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ، أَيْ: فَأَرِيدُوهُ أو اسألوه، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ حَنَّ إِلَيْهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى دُخُولِهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَاسْتَعْجَلُوهُ بِالتَّمَنِّي، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ: فِي قَوْلِكُمْ، وَقِيلَ: فَتُمَنُّوا الْمَوْتَ، أَيِ: ادْعُوَا بِالْمَوْتِ عَلَى الْفِرْقَةِ الكاذبة."[1].

1 – تفسير البغوي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 01، 1420هـ) ج 1/ 143.

– **كفاية طلب تمني الموت دون الموت الحقيقي:** وفكرة تحديهم بتمني الموت مع أنه لا يلزم من ذلك وقوعه فعلا فقد تكون لله حكمة في غير ذلك، ولكن المسألة هي في الكشف المباشر عن شدة التعلق بالدنيا مهم قل نصيب العبد منها، وذلك في التنكير في عبارة (حياة)، من قوله (أحرصَ النّاس على حياةٍ). وقد ورد في بعض الأحاديث ما يفيد وقوع الموت بمن تمناه منهم " رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ لَغُصَّ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بِرِيقِهِ وَمَا بَقِيَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَهُودِيٌّ إلا مات»."[1].

والملاحظ أن الطلب كان في التمني لا قتل النفس فعلا كما كان مطلوب موسى عليه السلام في قوله (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[البقرة:54]. فقد جاء في تفسيرها " وقوله تعالى: (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) فيه تأويلان: أحدهما: معناه: ليقتل بعضكم بعضاً, وهذا قول ابن عباس , وسعيد بن جبيرٍ , ومجاهد. والثاني: استسلموا للقتل , وجعل ذلك بمنزلة القتل , وهذا قول أبي إسحاق."[2]. وعلى كلا التقديرين فليس من السهل القيام بذلك.

وأما من ناحية بلاغية فيمكن الإشارة إلى جملة أمور وقف عند بعضها بعض المفسرين، نتعرض لما يناسب المقال هنا ومنها: أورد الحجة تبعا لمدعاهم فقال (فَتَمَنَّوُا الموْتَ) ولا شك أن العدول عن أن يطلب منهم التلفظ بذلك أو الدعاء إلى التعبير بالتمني ينطوي على سبب بلاغي وجيه، ذكر الزمخشري في تعليقه على الآية، وعلى طريقته فقال: " فإن (قلتَ): التمني من أعمال القلوب وهو سرٌّ لا يطلع عليه أحدٌ؛ فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ (قلتُ): ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه ليتَ لي كذا. فإذا قاله، قالوا تمنى. ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر، ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل

1 – تفسير البغوي، المصدر نفسه. ج 1/ 144.

2 – النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي (دار الكتب العلمية، لبنان، ب ت) ج 1/ 122.

أنهم قالوا ذلك."[1]. ومقصود الزمخشري نفي قصر محل التمني على القلب، وإنما يشمل ما هو باللسان أيضا كما هو هنا حسب رأيه.

ولقد فسر الشوكاني التمني الوارد في الآية بالتلفظ لا مجرد التمني بالقلب فقال : " والمراد بالتمني هنا هو التلفظ بما يدل عليه، لا مجرد خطوره بالقلب وميل النفس إليه فإن ذلك لا يراد في مقام المحاجة ، ومواطن الخصومة ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني أو صرفهم عنه معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف والتجري على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاه عنهم التنزيل فلم يتركوا عادتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت إما لأمر قد علموه أو للصرفة من الله عز وجل ."[2].

وأما قوله تعالى (ولَن يّتَمَنَّوْهُ أبدًا)، فهي جملة معترضة لبيان وتأكيد عجزهم عن التمني المطلوب ويحكم على الدعوى بالسقوط ما دام لم يتوفر لها شرط الصدق، وهو تمني الموت لقاءَ ما عند الله مما يزعمونه من الكرامة والقرب.

وأما التعبير بـ (أيْدِيهِم) مع أن ما يكسبونه يكون باللسان كما كان الشأن في الطعن في القرآن أو من عمل القلوب كالكفر بالرسول، فإن ذلك كناية عن جميع الأعمال، وقد قال الطاهر بن عاشور بعد حكاية هذا القول عن الواحدي:" ولعل التكني بها دون غيرها لأن أجمع معاصيها وأفظعها كان باليد."[3].

وأما فاصلة (واللهُ عَلِيمٌ بالظّالمينَ) فقد تضمنت معنيين :

– **التنبيه** :" فقد نسبهم إلى الظلم ووجه ذلك أنهم ظالمون في ادعاء ما ليس لهم ونفيهم عن غيرهم "[4]. وبين إحاطة علم الله بوقوع ذلك منهم مع حرصهم على إخفائه ، وقد علموا ما أعده الله للظالمين»،خبر مستعمل في التهديد لأن القدير إذا علم بظلم الظالم لم يتأخر عن معاقبته ."[5].

---

1 – تفسير الكشاف، لجار الله الزمخشري (دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 03،1407 هـ) ج 82/1.

3 – التحرير والتنوير، المرجع السابق. ج 616/1.

4 – روح المعاني، المصدر السابق. 328/1

5 – التحرير والتنوير، المرجع السابق. ج 616/1.

– **التهديد** : " تهديد لهم "[1]، ويظهر وجه الناسبة أن ما ادعوه من الاختصاص لا دليل لهم عليه من كلام النبوة ثم فيه من المزايدة على الآخرين من سائر أتباع الرسل فعقب الله تعالى على كلامهم بعكس المقصود وهو أنهم إن كان لهم شيء في الدنيا فهو الظلم الواقع منهم وفي الآخرة جاء الظالم فهو تهديد زيادة على تكذيبهم .

وهكذا يمعن القرآن في إقامة الحجة عليهم، فيقبل التحدي منهم ويحكي دعواهم ، مع أنه لم يذكر لهم حجة يقدمونها ، إنهم يزعمون الاختصاص بالدار الآخرة من دون الناس و بأن الجنة نصيبهم من دون الآخرين، لا يضرهم ما هم عليه من الذنوب و المخازي كما يزعمون الاختصاص بولاية الله ومحبته لهم من دون سائر الأمم ولا يذكرون لذلك مزية ذاتية خاصة، ولا عملا متقبلا، ولا يعتبرون لتكذيب وحيه وقتل رسله وتحريف كتبه وزنا إدعاء لهذا الكذب العريض، وترديدا له في كل مجمع وناد يفخرون به على الناس وعند لقاء المؤمنين.

ولا شك أنهم حاولوا ادعاءه أمام الرسول ﷺ، أو عرضوه عليه أو بلغه ذلك عنهم فأمره القرآن بأن يقبل التحدي وأن يطلب منهم تمني الموت ولو بقلوبهم إن كانوا صادقين. لا بد إذن من مواجهة هذا التهريج الذي طال وملت منه الأسماع، ثم هي فرصة جديدة للرسول والمؤمنين من أجل تقليم أظافر المبطلين وإلزامهم عاقبة الكذب الصريح، خشية على ضعاف النفوس من أهل الكتابين وحتى المؤمنين من تصديقه أو التأثر به (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)[البقرة: 94 – 96].

وقال في سورة الجمعة بيان صريح في أن قائل هذه الدعوى الكاذبة هم خصوص اليهود الساكنين في المدينة الذين ربما أدى بهم رفق صاحب الرسالة في بداية الأمر إلى التطاول عليه وعلى أتباعه ودينه وأن الجنة التي يسعى الجميع إليها،

1 – تفسير الكشاف، المصدر السابق. ج 82/1.

إنما هي لهم وحدهم من غير حاجة إلى اتباعه فيما يقول (قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) [الجمعة: 6 – 7]

نجد في تفسير المنار:" يقول إن صحت دعواكم وصدق قولكم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وأنكم شعب الله المختار فلن تمسكم النار إلا أياما معدودات، لا تزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه، فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم، الذي لا منازع لكم فيه ولا مزاحم، وإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين."[1].

أخبر أن أحدا لا يفعل مثل هذا المطلوب ولن يفعل مثل هذا التمني إذ يمنعهم من ذلك ذنوبهم العظام ، وما هم عليه من المعاصي والمخازي . وتأكدهم من صدق الرسول الخاتم ، وشدة الأمر عليهم. وكشف القرآن عن حقيقة مرة هي أعمق ما تكون في نفوسهم إنها الحرص على الحياة أي حياة ، بدرجة ملفتة للنظر إنهم يتجاوزون في ذلك كل الناس حتى المشركين منهم.

وتخصيص المشركين بالذكر لبيان شدة الانحراف؛ فالمشركون لا يؤمنون بالحياة الآخرة فإذا حرصوا على الدنيا كان أمرا مفهوما ، أما أنتم فأهل كتاب تقرأون فيه صدق الوعد باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من الكرامة وما أوعد أعداءه فيه من المهانة بسبب ذنوبهم والأعراض عن أمره .

وهذه الدعوى العريضة كانت تجوز على غير المؤمنين ممن لا كتاب معهم أيام الجاهلية والإسلام لم يظهر بعد ، إذ مهما يكن من أمر المعاصي التي يقترفونها ، إلا أن ما هم عليه من التدين ونسبة الكتاب إليهم ونسبتهم إلى الكتاب وأمر التوحيد وبقية الشرائع التي يتوارثونها وجزء منها صحيح النسبة إلى النبي الذي يضيفونها إليه ، يجعلهم ربما يتيهون على العرب وعموم من لا كتاب عندهم من الأميين . ويتميزون عنهم بولاية الله لهم ومحبته لهم .

1 – تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:01، 1990م) ج1/ 389 .

لكن هذه الدعوى لا محل لها الآن وقد وضح الدين التمام الذي يصدق ما بين يديه من الكتاب، ويجعل من مهامه ترشيد التدين الموجود لأهل الكتاب المعاصرين له والآتين من بعده. وكان من المطلوب كذلك منهم أن لا يزايدوا بإيمانهم وهم أعلم بضحالته على أتباع الدين الجديد الذين يعاين أهل الكتاب صدق تدينهم وشدة إخلاصهم للإسلام ولنبيهم وحرصهم على إقامة حياتهم على منهج الوحي الخاتم الذي يتكفل الله بحفظه. لكنهم لم يتمالكوا، وجروا على الهوى القديم يستعجلون الفضيحة وذل الدهر، فانكشف للجميع حجة القرآن عليهم وغلبته لهم، وإحاطة أدلته بهم حتى لم يبق لهم مخرجا من الأمر .

05 – مباهلة المكذب:

أختم هذا الاستعراض بهذا العنصر الموغل في الحسية، ذلك أنه بشكل علني يسمح بتحديد المواقف، وتحقيق حالة أكثر حدية؛ لطبيعتها المباشرة والجماعية. إن سياق الآية يتعلق بالمسيح وطبيعته المتنازع فيها بين من يدعي الطبيعة الألوهية ومن يقتصر على الخاصية البشرية، وأمام هذا التناقض الصارخ، وما يسمح به من تكثير التأويل، وسياق الاحتجاج الحقيقي والمفتعل، المتبادل والأحادي، يتعين حماية للحقيقة المتنازع فيها، وما تتعرض له من التعويم أن يتم اللجوء إلى ما يكشف عن باطن الفكر، ودخل الاعتقاد عند كل من المتنازعين ما دام لم تكف الأدلة العقلية الواضحة مثل (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[آل عمران: 59].

وفي هذا السياق أيضا يختم السجال باللجوء إلى الإلتزام بلازم الإدعاء (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)[آل عمران: 61]. من وجهة نظر لغوية فإن لفظة **(حاجك)** هنا تأتي بمعنى " خاصمك وجادلك، وقارعك الحجة، والمحاجة هي المفاعلة، ولا تقع إلا من اثنين فصاعدا.»[1]، وهذا هو ما جرى عليه

1 – إعراب القرآن وبيانه. المرجع السابق. ج 1 /524.

البحث من أن المحاجة أخص من مطلق الحجة، لكون الحجة أعمُّ من أن تكون بين اثنين.

ومعنى فعل (تَعَالَوْا) « هلمُّوا والمراد المجيء بالرأي والعزم، كما تقول: تعالَ نفكر في هذه المسألة «[1]، وإلا فهم أمامه خصوصا من حضر عنده من وفد نجران. وإطلاق عبارة العلم في جملة (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) المراد به " الآيات الموجبة للعلم ، وإطلاق العلم عليها إما حقيقة لأنها كما قيل نوع منه ، وإما مجاز مرسل ، والقرينة عليه ذكر المحاجة المقتضية للأدلة."[2].

وهذا دليل آخر لمن عاصره وحجة زائدة على من كذبه ، ولم يسارع إلى واجب تصديقه ثم هي من البراهين المادية الملموسة ، إذ يقف فيها الخصمان وجها لوجه فلا مجال حينئذ للمزايدة ولا مكان للإدعاء ، فأحد الطرفين سينزل عليه غضب من الله جزاء كونه كاذبا فيما يقول مفتريا فيما يدعي .

وأهل الكتاب بما فيهم اليهود كانوا من أعلم الناس بباطل ما هم عليه وصدق الرسول الخاتم ، وأنهم إنما يزورون مقالات وحججا يقدمونها بين يدي أتباعهم من العامة، كلما احتاجوا إلى ذلك لتبرير ما هم عليه من التهود والتنصر، والرغبة عن الإسلام.

جاء في سبب النزول " جاء راهبا نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم.فقال لهما : أسلما تسلما . فقالا : قد أسلمنا قبلك . قال:كذبتما ؛ يمنعكما من الإسلام سجودكما الصليب وقولكما اتخذ الله ولدا وشربكما الخمر فقالا ما تقول في عيسى ؟ قال فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)[آل عمران: 58]، فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاعنة وجاء بالحسن والحسين وفاطمة وأهله وولده عليه السلام ، قال فلما خرجا من

1 – تفسير الكشاف، المصدر السابق. 193/1.

2 – تفسير روح المعاني، المصدر السابق. 187/3.

عنده قال أحدهما لصاحبه :أقرر بالجزية ولا تلاعنه، فأقر بالجزية قال: فرجعا فقالا: نقر بالجزية ولا نلاعنك.".[1].

ففي هذا النص التاريخي يحاور الرسولﷺ وفد نجران ومن ورائهم يحاور كل مسيحي بوصفه الداعي الجديد إلى الله ،المبعوث إلى الناس كافة بما فيهم من لهم كتاب أو شبهة كتاب . وقد دلت ظروف القصة على مدى ما أحاطهم به عليه السلام من الاحترام والتقدير أمام المؤمنين واليهود جميعا، حين تركهم يؤدون مراسيم عبادتهم في المسجد وعلى مرأى من المسامين مع ما في عقيدتهم مما ينافي التوحيد بل يجسد الوثنية كل ذلك توصلا إلى مقفل قلوبهم وتوفيرا لجو هادئ يتم فيه السؤال والجواب بعيدا عن التحامل والتراشق بالتهم مما يسببه اضطراب التفكير ، والانغلاق على الذات وليتبين للمسلمين التطبيق الحقيقي والدقيق لمبدأ مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن .

ولما تم التمهيد للحوار بكل ما تقدم وبمختلف أساليب الحجة والإقناع ، وظهر جليا للحاضرين مدى التعصب والجمود على المعتقد والعجز عن إقامة البرهان على ما يعيش الإنسان عليه من دين ،كثيرا ما يدفع حياته ثمنا للثبات عليه .هناك كان لا بد من أن يتم المشهد بالحسم في المواقف يحمل كل طرف مسؤولية ما هو عليه من رأي ويصر عليه من مذهب ختم الرسول الحوار بدعوة الأطراف جميعا إلى ما يبين صدق المدعى وعمق الإيمان إنها المباهلة التي يتم فيها الدعاء من الفريقين لله الذي يجتمعون على تعظيمه على معاقبة الكاذب والانتقام منه ، من أهله إنه لا شك موقف صعب وكاشف لكل زيف ، أنه الهلاك السريع الكاذب .

إنما ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النفس الشريفة الأبناء والنساء ،مع أن القصد من المباهلة تبيين الصادق من الكاذب وهو يختص به وبمن يباهله لأن ذلك أتم في الدلالة على الثقة بحاله وصدق مقاله وفي هذه القصة أوضح دليل على نبوته صلى الله عليه وسلم ؛وإلا لما امتنعوا عن مباهلته.

1 – أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي (دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 01، 1411هـ) ج /67.

وفي تفسير القرطبي* " ولعل الآية الآنفة من سورة آل عمران ، والتي نزلت في هذه القصة، تعد من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منه ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه ، اضطرم عليهم الوادي نارا . فإن محمدا نبي مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى. فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم ، على أن يؤدوا في كل عام ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب.فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك."[1].

ولا شك أنه " كان لامتناع نصارى نجران من المباهلة التي دعاهم إليها النبي وأشارت إليها الآيات**59-64** من سورة آل عمران الأثر البالغ في ترسيخ اعتقاد المسلمين أن عيسى ليس سوى بشر خلق بواسطة الأمر الإلهي كن وأن القول بألوهيته من باب الشرك واتخاذ أرباب من دون الله ، وبالخصوص أن النصارى كاذبون فيما يدعونه فيه ،وأن توليهم عن المباهلة دليل على انهم مفسدون."[2].

ومن جهة أخرى فإن " الآية تتناول المحاجة فيه بكل ما جاءه من العلم . ويظهر من خلال الآية ومن جو القصة ، أن هؤلاء القوم لم يريدوا الاقتناع بل دخلوا في جدل عقيم لا يحقق أي هدف، ولا يصل إلى أي نتيجة ؛ مما دعا النبي ﷺ إلى طرح المباهلة عليهم كأسلوب من أساليب التأثير النفسي الذي يشعرهم بالثقة المطلقة بالعقيدة الإسلامية وبمفاهيم الدعوة الجديدة ..حتى أن النبي ﷺ كان مستعدا لأن

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري كان إماما علما، من مصنفاته: الجامع لأحكام القرآن . توفي 671هـ . انظر: شذرات الذهب في أخبار، ابن عماد الحنبلي (دار ابن كثير، لبنان، ط: 01، 1986 م) ج 5/ 335.

1 – الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي (دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 02، 1964م) ج 104/4.

2 – الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد شرفي (الدار التونسية للنشر، تونس، ط:01، 1985م)
ص/305 .

يعرض نفسه للموقف الصعب عندما يقف مع أهل بيته ليواجهوا الآخرين بالوقوف بين يدي الله ..فيما تنازعوا فيه فيطلبوا منه سبحانه أن يجعل اللعنة على الكاذبين.»[1].

ويتبين من تنويع الأدلة والبراهين القرآنية أنه: " على الداعية أن لا يهمل أي عنصر من عناصر التأثير على الآخرين في إيصالهم إلى الحقيقة ، أو في الإيحاء إليهم بالاطمئنان إلى قوة هذه الحقيقة حتى ليقف الإنسان في أشد المواقف حراجة في مجال التحدي لثقته بان الدعوى في المستوى القوي لمواجهة التحدي بأقوى منه."[2].

الخاتمة:

أختم هذا العرض للشواهد الحسية التي قدمها القرآن للمخالفين بما يلي:

– أن القرآن الكريم عرض كثيرا من قضايا الأديان للنقاش المفتوح الطويل.

– أنه أمام كثرة الخوض في التفاصيل لابد من جمع أطراف الحجة، لتكون أكثر حسما وإلزاما للخصم، وتضييقا عليه بغرض تقليل الضغط على الدعوة والداعي.

– أن حماية الحقيقة الدينية مهمة الجميع، وحماية طرق الوصول إليها قسمة العقل الإنساني.

– أن الحجة القرآنية وإن لم تنتج الإقناع زمن النبوة إلا أن مفهولها يبقى مفتوحا ومستمرا ومرشحا لكل زمان ومكان.

– أن الداعي في الحوار قد يكون من مقاصده إقامة الحجة على أتباع الأديان لا غير.

1 – الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله (دار الفكر، لبنان، ط:01، 1986م) ج 1/ 16.

2 – الحوار في القرآن، المرجع نفسه. ج 1/169–170.

المصادر والمراجع

- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 03،1420هـ)

- زهرة التفاسير، للشيخ محمد أبي زهرة (دار الفكر العربي، مصر، ط:01، 1995م)

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 01 ،1422هـ)

- تفسير المراغي، مصطفى المراغي (مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط: 02، 1953م)

- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (الدار التونسية للنشر، تونس، ط:01، 1984 هـ).

- روح المعاني ، محمود شكري الألوسي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 01، 1415هـ)

- في ظلال القرآن، سيد قطب (دار الشروق، سوريا، ط: 06، 1984م).

- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (دار طيبة للنشر والتوزيع، العربية السعودية، ط: 02، 1999 م)

- مختصر تفسير ابن كثير (دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط: 07، 1981م)

- إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش (دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط: 04، 1415هـ)

- تفسير البغوي، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 01، 1420هـ)

- النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي (دار الكتب العلمية، لبنان، ب ت).

- الكشاف، لجار الله الزمخشري (دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 03،1407 هـ).

– تفسير المنار ، محمد رشيد رضا (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:01، 1990م).

– إعراب القرآن، محي الدين الدرويش (دار ابن كثير، دمشق، ط: 04، 1415هـ).

– أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي (دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 01، 1411هـ).

– الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي (دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 02، 1964م)

– شذرات الذهب في أخبار، ابن عماد الحنبلي (دار ابن كثير، لبنان، ط: 01، 1986 م)

– الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد شرفي (الدار التونسية للنشر، تونس، ط:01، 1985م)

– الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله (دار الفكر، لبنان، ط:01، 1986م)